من مشاهد الشرق

٣ ـ طائفة البهرا فى الهند

فى مضرة داعى الدعاة

بقلم محمد نزيه

مضى محمد على بَخْش رئيس الوزلدة البهرية وأنا فى أثره ، فى بعض جادة القصر ، حتى انتهى وانتهيت معه إلى باحة فسيحة أمام سلم مديد ، ذى ست درجات من رخام أبيض يشف عن زرقة رقيقة ، فلما أن درَّجْناه كنا أمام بابين رحيبين ، كلاهما سبيل إلى تلك الحجرة الرهيبة التى يستقبل داعى الدعاة زواره فيها ؛ وإذا كانت غرفة الانتظار قد تقاضتنا خلع الأحذية قبل ولوجها ، فأحْرِ بغرفة الشيخ الأكبر أن تطالب قصادها بمثل ذلك وأكثر منه . وكذلك هتفت بى نفسى هذه المرة بما هتف به سائق السيارة من قبل ، أن اخلع نعليك فانك قادم على أنيس المهدى المنتظر وجليسه ، وأمينه سراً وعلانية ، وأبى بكره من دون الخلق أجمعين !

ولقد ظللت مذ أُشْرِيَ بى من غرفة الانتظار إلى غرفة الملتقى — وكلاهما حرام — منصرفاً عن كل ما عسى أن يتداول سمع المرء وبصره ، إلى التفكير فى ذلك الرجل الذى يتقاضى جميع الناس كل أسباب التقديس له ، بين مؤمن بمذهبه ومستريب به ومنكر له ، ثلاثتهم من تقديس الشيخ فى أوضاع متشاكلة ما أرادوا لقاءه ، بل وما يكون هذا التقديس من ثالث الثلاثة تكلفا ولاصناعة ولا زَيْفا ، فقد كنت أحسبه كذلك من قبل ، وهأنذا الآن فى منتصف الطريق بين الحجرتين ، مفعم النفس برهبة شديدة تكاد تطغى على الرغبة الشديدة فى رؤية الشيخ ، بل وما فتئت هذه الرهبة تشتد سريعاً ، حتى لقد بلغت شأوها فى ثلاث من خطواتى ، وإذا بالحواس الخمس قد رفت فى بعض الدقيقة ودق ارهافها ، فكأنما غادرت عالم الملموس والمحسوس إلى عالم الالهام ؛ وما دام هذا العالم الجديد لايدرك مما يحيط بالمرء وإنما يدرك من باطنه ، من دخائل نفسه ، فقد انقلبت حواسى كلها إلى نفسى ، وكأننى بت لا أعى من الوجود شيئاً ، ولم تزل هذه النفس المرتهبة تتسع حتى تملأ كل فضاء داخل الجسد ، وتشمل القلب كله ، وتغير على ما فوقه وما تحته ، وما عن يمينه وما عن يساره ، وما أمامه وما خلفه ، كل ذلك فى خطى الكهرباء ، فلم أكد أتم الخطوة الرابعة حتى كنت نفساً ولا جسد

وأخذت هذه القوة الجديدة تتخيل صورة الشيخ وتحاول رسمها ، فاذا دأبت فى هذا السبيل جاهدة ، انبثت ذرات الرهبة ، فتوثبت على القلب فاختل نظام دقاته ، وهنالك تضطرب النفس فلا تقوى على المضى فى مهمتها ، لذلك لم ترسم الصورة حتى صرت على قيد خطوات من صاحبها ، فتقدمت اليه حتى استويت أمامه . لم يكن فى وسعى ولا فى وسع سواى أن يصافح الشيخ دون أن ينحنى ؛ إلا أن يركع ، مالم يكن قصيرا ، ولست بقصير . ذلك أنه يجلس على كرسى لعل مقعده أدنى إلى الأرض مما يعهد فى كل كرسى ، ولم ينهض الشيخ عنه ليصافحنى واقفاً ، وربما كان لا يعرف الوقوف من أسباب التحية ، فلا مناص لمن شاء مصافحته من الانحناء ، ثم لا مناص لمن استأذن عليه من المصافحة ، ومن يدرى ؟ لعل هذا الكرسى القصير إنما دبر تدبيراً ، ثم إن هذا الكرسى قد عوض عن قصر أرجله رحابة فى صدره ، حتى لقد تبينت الشيخ من الكرسى ولم أتبين الكرسى من الشيخ

صافحت الشيخ منحنياً ولا بد ، فاذا كف نحيل لعل الرَّفَّ يؤذى عظمه ، فلقد أحسست أننى أقبض على حزمة من الأقلام ، بل أحسست أكثر من ذلك بالفاصل الدقيقة لكل أصبع ، وكأنما انفرطت عظامها فى يدى فما يستعصى عندها علىّ ! لكأن هذه الكف ترتفع من تلقاء نفسها إلى فمى ، فلقد علمت أننى رفقتها ، ولعل ذلك إكبار ولعله رفق بالضعف ، ولاسيما وهو ضعف الكبر ؛ ولشد ما يحنو بعض القوة على بعض الضعف ؛ إذن فقد انحنيت فصافحت ثم قبلت ، وخطوت بعد ذلك إلى الكرسى الواحد الذى يشاطر الغرفة كرسى الشيخ ، ثم تحركت حدقتا عينى فطافتا ببعض الحجرة وميضا حتى استقرتا لحظة على صاحبى محمد على بخش وقد ألصق ظهره بالجدار ، وأمال رأسه إلى الامام قليلا ، وشبك أصابع كفيه على صدره تحت لحيته ؛ وجد كذلك كأنه التمثال

سألني داعي الدعاة عن موقع المدينة من نفسي ، ثم عن الصحافة المصرية وحظها من النهوض ، فلما أن فرغ من أسئلته وحان دوري في السؤال ، وكنت أعلم أن التحدث في مسائل الدين هو أشهى الأحاديث لدن رجاله ، وأعلم إلى ذلك علماً ليس بالظن أن أقران الشيخ لا يفتأون ينعون على الناس تركهم أمر الآخرة ، فكل امرىء عندهم مفرّط مهما تخفف من زخارف العاجلة وتولى يرتجي الآجلة ، ما يألونه إذ يرونه ذلك النصح الممزوج بالتعنيف والاتهام ، فهم متسخطون متبرمون رغماً من رغم ، آثرة بالكمال من دون الناس ، فقد استهللت بالأسف لاهمال المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم معاً ، وكأنما قلت للسيل انهمر ، فقد تدفق الشيخ فلم يترك في معجم الألم كلمة الا قالها ، ولا حركة الا أتاها ، بعينيه وشفتيه وكفيه ، قال بلسانه العربي المبين — وقد أسلفت أنه من سلالة عربية قريبة العهد بموطنها الأول ، المبين : (إن دولة الاسلام قد انهارت أركانها في كل مكان ، ودكت حصون الدين وسقطت معاقله ، حتى عادت أطلالاً تناجيها) ثم راح يبعث قول الشريف الرضي :

ولقد مررت على ديارهمُ وطلولها بيد البلى نهبُ
فبكيت حتى ضج من لغب نضوي وملّ بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

قلت : هل يرى مولانا أن تخلف العالم الاسلامي ناجم عن إهمال الدين ؟ قال : (عن اهماله فقط ، وليس في أداء فرائضه وحسب ، بل في التأدب بآدابه ، بل في الاستمساك بأسباب التعاون والمودة ، وإطراح الخصومة والعداوة والبغضاء ، وحدب الغني على الفقير ، واطمئنان الفقير إلى الغنى ، وخشية الله والآخرة ، واتقاء الخزي والندامة ، والحسرة والعذاب يوم القيامة)

قلت : وهل من أمل في إصلاح ما انهدم ؟ فانبسطت أسرة الشيخ دفعة واحدة والتمعت عيناه ، وطالعني منه صوت يتجلى فيه الحزم والعزم والايمان واليأس الشديد وهو يقول : (نعم . إن الأمر لله في دين الله ، وإنه ليحميه ويعلي كلمته حين يشاء ، ولكنما يُترك الأمر للناس حتى يُسلموا بالفشل ويَتشوا من النهوض ، وإذ ذاك يقضي الله فاذا الحق في الذروة والباطل في الرغام)

قلت : أفلا يحاسب رجال الدين على شيء مما نرى من أمر الدين . ؟ فسكن الشيخ لحظة ثم قال : (أعلم أن كثيراً من الناس يقومون برجال الدين ويقعدون ، ولكن ما الذي يسع رجال الدين أن يفعلوا إن كانوا في شعب متخاذل مستضعف ؟ إنهم إذ ذاك لا يفضلون أبناء شعبهم ، ولعلك تعلم أن الفساد جرثومة سريعة العدوى ؛ وهب أن بين رجال الدين من امتنع من جرائم الفساد ، فماذا يفعل وأهل أمته كلهم ذلك الحواري الذي شهد على عيسى بن مريم ؟ ! . أفتدري كيف تقهر الأمراض العصية في الأجساد ، إن أحدث أسباب ذلك وأصدقها نتيجة أن يلقح الجسد المريض بعين الجراثيم التي تمرح فيه ، ولم يتنبه الطب إلى ذلك إلا بعد قرون من تنبه الحكام إلى أثر هذه الوسيلة نفسها في أخلاق المحكومين ، ولن يعدم زمن من الأزمان ، ولن تبرأ جماعة من الجماعات ، من أشرار وإن قلوا ، وتلك سنة الحياة ، وقد احتال الظلمة وافتنّوا في الاحتيال ، حتى استكشفوا أن رجل الدين الصالح لا يقهر إلا برجل الدين الطالح ، ثم هم يزودون صاحبهم بقوة المال وسطوة البطش والعدوان ، ويذودون عنه بعد ذلك إن أحدق به خطر ، فاذا سئلوا في ذلك قالوا ، إنما نرفع كلمة الدين ونعيذه من الهوان)

وتنفس الشيخ برهة ثم قال : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، وقد نزل الدين سهلاً مفهوماً ، فلتأخذ بعبادته التي لا تحتاج إلى رجال الدين ، فاذا استقرت هذه الأوليات في النفوس ، سهل علينا أن نميز الصالح من الطالح من رجال الدين فنأخذ عن أولهما وندع الآخر . على الآباء والأمهات جميعاً بهذه المهمة ، كل بؤدب أبناءه بأدب الدين منذ الصغر ، قبل أن يبلغ الطفل أشده ، فيصبح تحت رحمة القانون والبيئة والمطامع)

قلت : وهل من سبيل إلى تخفيف الفساد ؟ قال : (نعم ، ولكن أسباب التخفيف لا تعرض هكذا على بساط الريح ، فلا بد من البحث والروية والتثبت ، ولا سيما ونحن نريد أن نعالج جماعات كثيرة مختلفة العلل ، وقد يصلح لهذه من الدواء ما يزيد تلك علة على علة ، ولذا وجب أن يجتمع أطباء الدين والأخلاق من كل جماعة أطباؤها ، فاذا تذاكروا جميعاً حتى اهتدوا إلى العلة المشتركة ، تذاكروا حتى يهتدوا الى الدواء المشترك . المؤتمرات ، على أن تكون خالصة لله وحده ، تقية من الدخلاء ، بريئة من الشبهات ، حرة أكمل حرية ، مطبوعة على إكبار الذات والايثار

دون الأثرة) وسكن الشيخ برهة وقد بدا على محياه أنه يطلب الراحة ؛ ثم ضغط على جرس كهربائي مثبت على منضدة صغيرة أمامه ، فان هي إلا ثوان معدودة حتى أقبل من داخل الحجرة خادم يحمل بيمينه لفافة من قماش ، تقدم بها الى الشيخ فتناولها منه ، ثم مد بها يده الى ناحيتي ، فخطوت اليه وأخذتها شاكراً ، وودعت داعي الدعاة بعد أن ألقيت على سمعه ماواتاني به الله من كلمات الشكر والتقدير

أما لفافة القماش ، فقد تبينت بعد أن بانت الغرفة أنها (شال) من الكشمير وسط فى صنعته وقيمته ، ثم علمت أنه نفحة الشيخ لكل زائر غريب ، وإنما تختلف قيمتها بقدر ما للزائر من مكانة فى قومه ، وأما غرفة الزيارة فرحبية تكاد تتسع ثلاثين متراً فى نصفها ، يرتفع سقفها على عمد من رخام ، عارية الجدران من الصور ، حافلة الأديم ببساط أبيض عار من زهو النقوش ، وقد أسلفت أنه لم يكن بها إلا كرسيان للشيخ ولى ، ولعل هذه البساطة فى مظاهرها والرحابة فى اتساعها مما يزيدها رهبة ويزيد صاحبها إجلالاً . أما الشيخ فانه من نحول الجسد ورقته كأنما إياه كان المتنبي يعني لما قال :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وهو على شدة نحوله ليس بالطويل القامة ، كأنه غاندى ، لولا أن وجهه المستطيل خفيف السمرة ، مشرق الديباجة ، متسع العينين حتى تملآن نصف وجهه ، حديد البصر ، كأنما تطل نفسه المطمئنة من عينه ، ضاحك السن فى وقار كثير ، تنبئك مظاهره كلها بأنه رجل موطأ الأكناف حقاً . وقد استتر رأسه تحت طاقية بيضاء ، وتغطى جسمه بجلباب أبيض ، وهو فى غرفته مثال نادر الأنداد للبساطة فى الغنى ، والتواضع فى الجاه

كررت إلى جادة القصر يصحبني محمد على بخش ، فمضينا إلى مسجد القصر متحدثين بالانجليزية فانه لا يعرف العربية ، فاذا نحن حيال مسجد حديث البناء أنيقه ، متوسط السعة ، مفروش بالسجاد ، ذى ثلاثة أبواب ، اثنان منها لدخول المصلين من الرجال ، والثالث لدخول المصليات من النساء ، وقد فصل بينهن وبين الرجال فى رواق المسجد جدار رقيق لا يتصل بسقفه ، أما المنبر فمن الخشب الثمين المتين وقد خلا من كل زخرف ، كل مافى المسجد ناطق ببساطته ، خلا ثرياته الثمينة التى تؤلف فى انتظامها أروع الشكول . فلما فرغنا من تفقد المسجد دعانى صاحبي إلى التدريج إلى أعلى القصر ، حيث أعد به موضع يشرف على المدينة كلها ، فترى منه واضحة المعالم جلية الرسوم ، ولولا سدول الليل لاستطعت فى هذه القمة إحصاء مساجد (بمبي) وعد حدائقها ، وتبين أعلامها والتحديق فى ميادينها ، على أنك لا ترى المدينة وحدها من هذه القمة ، بل ترى البحر وعبابه ينساب إلى عالم المجهول ما ؟

القاهرة محمد عزة

وزارة المعارف العمومية

اللجنة الوزارية الاستشارية لبعثات الحكومة

تعلن إدارة البعثات بوزارة المعارف أنها ستوفد فى هذا العام بعثتين عضو واحد من الحاصلين على دبلوم الهندسة الملكية قسم (الكهرباء) للتخصص فى الرياضة والطبيعة بجامعة كمبردج بانجلترا لاعداده للتدريس بمدرسة الهندسة الملكية

فعلى من يريد ترشيح نفسه لهذه البعثة أن يقدم طلبه بذلك على الاستمارة الخاصة المعدة لذلك . ويمكن الحصول عليها من إدارة مخازن وزارة المعارف بدرب الجامين بالقاهرة نظير دفع ثلاثين مليماً . ويرسل هذا الطلب بعد استيفائه مسجلاً بطريق البريد إلى : حضرة صاحب المعالى رئيس لجنة البعثات بالمعارف . وذلك إذا كان الطالب غير موظف فى الحكومة . أما إذا كان موظفاً فيها فيجب أن يقدم طلبه إلى رئيس المصلحة التى هو تابع لها

وفى كلتا الحالتين يجب ألا يتأخر وصول الطالب إلى سكرتارية لجنة البعثات بوزارة المعارف عن ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٥

٢/٣